

الملتقى الوطني بعنوان: " السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه الممارسات الدينية في
الجزائر-فريضة الحج أنموذجا- يوم 16 أفريل 2026،

جامعة مصطفى اسطنبولي معسكر.

لطرش حنان

أستاذ محاضر –أ- بكلية الآداب والحضارة الإسلامية

تخصص تاريخ حديث ومعاصر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المحور الثالث : الإدارة الاستعمارية والهواجس الصحية لفريضة الحج

نوعية المشاركة : عن بعد

المدخلة:

الحج في ظل الاستعمار الفرنسي للجزائر: بين الرقابة الصحية والمراقبة

السياسية في ضوء مقال

luc chantre ; "Une menace venue d’Orient.Un Siècle de Pèlerinage a La Mecque dans
l’Algérie Coloniale (1840-1940)

Hajj under French Colonial Rule in Algeria: Between Health Surveillance and Political Control
Based on Luc Chantre’s article, “Une menace venue d’Orient. Un siècle de pèlerinage à La Mecque dans
l’Algérie coloniale (1840–1940)”

الملخص:

اعتبرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية الحج شعيرة سياسية وأمنية ذات أبعاد استراتيجية؛ ولم تعتبره شعيرة دينية
فحسب . فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وضعت السلطات نظامًا تنظيميًا صارمًا لضبط حركة الحجاج

الجزائريين نحو مكة، شمل فرض تصاريح السفر، وإجراءات إدارية دقيقة، ومراقبة شرطية، إلى جانب رقابة صحية مشددة بحجة الوقاية من الأوبئة كالكوليرا.

غير أن هذه الإجراءات لم تكن صحية فقط، بل ارتبطت أيضًا بتخوفات سياسية من انتقال الأفكار الإصلاحية وحركات التضامن الإسلامي إلى الجزائر، مما قد يهدد استقرار النظام الاستعماري. وهكذا تحول الحج إلى مجال للمراقبة والضبط الإداري، يعكس سعي السلطة الاستعمارية إلى التحكم في حركة السكان وتنظيم المجال الديني بما يخدم أهدافها السياسية. ونسعى من خلال هذه المداخلة إلى إبراز أبعاد السياسة الاستعمارية اتجاه الحج، وبيان تداخل البعد الديني بالصحي والسياسي في إدارة هذا الركن الهام من أركان الإسلام خلال الفترة الاستعمارية.

حيث نتناول سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية تجاه الحج في الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، اعتمادًا على ما طرحه مقال «Une menace venue d'Orient» من تحليل تاريخي لطبيعة تعامل السلطة الاستعمارية مع هذه الشعيرة الدينية. وذلك من خلال طرح الإشكالية التالية:

إلى أي مدى اهتمت السلطات الاستعمارية الفرنسية بتنظيم الحج في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، وما حدود توظيف البعد الصحي كغطاء لممارسة الرقابة الاستعمارية؟

ونهدف من خلال هذه المداخلة إلى

-إبراز تصور الإدارة الاستعمارية للحج باعتباره قضية سياسية وأمنية.

-تحليل الآليات التنظيمية المعتمدة (التصاريح، الرقابة، الحجر الصحي).

-الكشف عن التداخل بين البعد الصحي والهاجس السياسي في إدارة الحج.

الكلمات المفتاحية

الحج - الاستعمار الفرنسي - الجزائر - الرقابة الاستعمارية - التنظيم الإداري - السياسة الصحية - الضبط الديني

Abstract:

During the nineteenth and twentieth centuries, the French colonial administration in Algeria did not regard the Hajj merely as a religious obligation, but as a matter of political and strategic concern. Beginning in the mid-nineteenth century, colonial authorities implemented a strict regulatory framework governing Algerian pilgrims' travel to Mecca, including mandatory travel permits, administrative procedures, police supervision, and quarantine measures justified by the prevention of epidemics such as cholera.

Beyond public health considerations, these measures reflected deeper political anxieties about the circulation of reformist ideas and pan-Islamic networks that could challenge colonial authority. Consequently, the Hajj became a domain of surveillance and administrative control, illustrating the broader colonial strategy of regulating mobility and managing religious life to safeguard political stability.

This paper examines the extent to which French colonial authorities organized and controlled the Hajj in Algeria and questions whether health regulations functioned as a pretext for broader political surveillance. It highlights the colonial perception of the Hajj as a security issue and analyzes the intersection of religious, health, and political dimensions in its administration.

Keywords:

Hajj – French Colonialism – Algeria – Colonial Surveillance – Health Policy – Religious Administration

مقدمة

لم يكن الحج، في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية، مجرد فريضة دينية تُترك للمسلمين ليمارسوها في إطار الحرية التعبديّة، بل تحوّل إلى ملف إداري وأمني وصحي بالغ الحساسية. فقد نظرت الإدارة الاستعمارية إلى انتقال الحجاج نحو الحجاز بوصفه حركة تتجاوز بعدها الديني، لأنها قد تفتح المجال أمام انتقال العدوى الوبائية من جهة، وانتقال الأفكار والشبكات والعلاقات السياسية والدينية من جهة أخرى. ولهذا لم تُدبّر شؤون الحج بمنطق ديني خالص، بل بمنطق الدولة الكولونيالية التي أرادت مراقبة الأجساد والتنقّلات والصلوات بالمشرق الإسلامي. وهذه الفكرة هي جوهر قراءة لوك شانتر لتاريخ الحج الجزائري بين 1840 و1940.¹

وتتضح أهمية هذه المقاربة أكثر إذا ربطنا مقال شانتر بدراسته السابقة حول “الوباء والبان-إسلامية”، حيث يظهر أن المخيال الاستعماري لم يفصل بين المرض والسياسة، بل أعاد بناءهما ضمن تصور واحد يجعل مكة والحج مصدرًا محتملاً لعدوى بيولوجية وعدوى سياسية في الوقت نفسه.² كما يسمح إدخال أعمال سيلفيا شيفوللو

¹ -Luc Chantre, “Une menace venue d’Orient. Un siècle de pèlerinages à La Mecque dans l’Algérie coloniale (1840-1940)”, *Revue d’histoire moderne & contemporaine*, 2016/2, no. 63-2, pp. 84-109

² - Luc Chantre, “Entre pandémie et panislamisme. L’imaginaire colonial du pèlerinage à La Mecque (1866-1914)”, *Archives de sciences sociales des religions*, no. 163, 2013, pp. 165-189.

حول نشأة الصحة العمومية الدولية بوضع الحج ضمن أفق أوسع، يبيّن كيف تحوّل منذ القرن التاسع عشر إلى موضوع للنقاشات الصحية الدولية والحجر الصحي البحري³، و من جهة المقارنة الإمبراطورية، تبين أعمال سوروبه ميشرا وجون سلايت أن الحج كان شأنًا استعماريًا عابرًا للإمبراطوريات، غير أن خصوصية الجزائر الفرنسية تجلت في شدة الربط بين الرقابة الصحية والضبط البوليسي المباشر⁴.

وانطلاقًا من ذلك، تتمثل إشكالية هذه المداخلة في السؤال الآتي: كيف تداخلت الرقابة الصحية والمراقبة السياسية في إدارة الاستعمار الفرنسي للحج في الجزائر؟ وتنطلق هذه المداخلة من فرضية مفادها أن التدابير الصحية لم تكن مجرد وسائل وقاية، بل شكّلت جزءًا من منظومة أوسع للضبط الاستعماري، استُخدم فيها خطاب الصحة العمومية لتبرير التقييد والفرز والتحقيق والرقابة على تحركات المسلمين الجزائريين وصلاتهم بالعالم الإسلامي⁵.

أولاً- الحج كملف أمني منذ بدايات الاحتلال

يُظهر لوك شانتر أن أولى محاولات تنظيم الحج من طرف الإدارة الفرنسية تعود إلى أربعينيات القرن التاسع عشر، أي إلى مرحلة مبكرة من الاحتلال. ففي سنة 1842 أعاد المارشال بوجو تفعيل نموذج القوافل الرسمية، لا لتيسير أداء الشعيرة بوصفها عبادة، بل لاستمالة بعض الشخصيات المسلمة، وفي الوقت نفسه لإبعاد أفراد رأّت فيهم السلطة سببًا للقلق على "السيادة الفرنسية". حيث أكد لوك شانتر ذلك في مقاله بقوله "... وفي سنة 1842 قرر المارشال بوجو إحياء نموذج القوافل الرسمية الذي كان معمولًا به في عهد الإيالة، ولكن لأغراض

³ - Sylvia Chiffolleau, Genèse de la santé publique internationale. De la peste d'Orient à l'OMS, Rennes, Presses universitaires de Rennes, 2012.

⁴ - Saurabh Mishra, Pilgrimage, Politics, and Pestilence: The Haj from the Indian Subcontinent, 1860-1920, Oxford University Press, 2011; John Slight, The British Empire and the Hajj, 1865-1956, Harvard University Press, 2015.

⁵ - Luc Chantre, "Une menace venue d'Orient...", pp. 84-86.

عسكرية هذه المرة. فكان الهدف، من جهة، كسب وُدّ شخصيات مسلمة عبر تمكينها من السفر إلى الأماكن المقدسة، ومن جهة أخرى «إبعاد أفراد قد يكونون مصدر قلق لسيادتنا عن البلاد، مدّةً من الزمن، وربما إلى الأبد». وهكذا قيل إن الأمير عبد القادر نفسه عُرض عليه، سنة 1843، من طرف الضابط المترجم ليون روش، أن يذهب إلى المنفى في الديار المقدسة. وبين سنتي 1842 و 1847 جرى تجهيز سفن بحارية تابعة للدولة في ست مناسبات لتمكين مسلمي الجزائر من أداء فرضهم الديني. وقد حظيت هذه العملية الدعائية، التي كانت ترمي إلى إظهار عناية فرنسا بالمسلمين، بتغطية إعلامية واسعة، حتى في فرنسا نفسها. فقد روت مجلة **L'Illustration** في سبتمبر/أيلول 1842 خبر صعود «مئة وأربعة وعشرين من الأهالي، المنتمين إلى الطبقات الغنية والمتعلمة، وقد جُمعوا من ولايات الجزائر ووهران وقسنطينة، وكذلك من إيالة تونس»، إلى متن **Le Caméléon**. ثم جرى تجديد العملية في السنة التالية وتوسيعها لتشمل موانئ أخرى في شمال إفريقيا...⁶ ومن هنا ظهر الحج، منذ البداية، بوصفه وسيلة تدخل في باب إدارة السكان لا في باب ضمان الحرية الدينية فقط⁷.

وقد تعزز هذا الاتجاه حسب لوك شونتر مع بروز الهواجس المرتبطة بالمهجرة إلى المشرق، وبالطرق الدينية، وبإمكانية تشكل شبكات معارضة انطلاقاً من الحجاز أو من مراكز إسلامية أخرى كدمشق والمدينة المنورة في الفترة نفسها، وبعد ثورة بومعزة سنة 1845، أصبحت تنقلات أعضاء الطرق الدينية موضع مراقبة دقيقة من طرف المكاتب العربية. فقد كان يُخشى أن تكون هذه الطرق الصوفية، التي شَبَّهها القبطان دو نوفيو بالجماعات السرية، تُغذي لدى أتباعها الاعتقاد بقرب مجيء «سيد الساعة» الذي سيحررهم من نير المسيحيين. وفي مايو/أيار 1855 أبلغ ليون روش، وكان آنذاك القنصل العام لفرنسا في طرابلس الغرب، الحاكم العام راندون بالتحركات المعادية للطريقة السنوسية، وهي طريقة أسسها في مكة الجزائري محمد بن علي السنوسي، ويُقال إنها استقرت في برقة منذ بداية أربعينيات القرن التاسع عشر بهدف شن الجهاد في الجزائر بمساعدة العثمانيين. تُثار أو تُحافظ عليها بفعل علاقات تُسجّت في المشرق مع شخصيات مهمّة مهاجرة من الجزائر أو نتيجة الانتساب إلى طرق دينية وكانت عدة آلاف

⁶ - Luc Chantre, "Une menace venue d'Orient...", p. -86

⁷-. Ibid., pp. 86-88

من الجزائريين قد اختاروا آنذاك الهجرة إلى المشرق، إلى المدينة المنورة أو إلى دمشق في صحبة الأمير عبد القادر، حيث كانت السلطات تشكّ في أنهم يدبّرون مؤامرات ضد أمن المستعمرة. لذلك جعل منشور 25 يناير/كانون الثاني 1858 منح جوازات السفر مشروطاً بتحقيق مسبق في سيرة طالب الجواز وأعماله. وفي سياق اتّسم بمجزرة فنصلي فرنسا وإنجلترا في جدة في يونيو/حزيران 1858، أشار إسماعيل أوروبان إلى انتشار كتيّبات كثيرة: تربط الطرق الدينية في الجزائر بالمؤامرة الكبرى للتعصّب الإسلامي التي تتمثل مكة مركزها،

وقد بلغ الارتياب في الحج حدّاً لم يُسمح معه للأمير عبد القادر بالسفر إلى مكة لأداء الحج إلا في ربيع

1862، مكافأةً له على سلوكه خلال الأزمة السورية سنة 1860⁸، وهنا يتبدى معنى عنوان شانتر :

“تهديد قادم من الشرق”؛ فالشرق، في المخيال الإداري الاستعماري، لم يكن فقط فضاءً دينياً مقدساً، بل صار أيضاً مصدرًا محتملاً للتمرد والعدوى والاتصال بشخصيات مهاجرة أو معارضة. وهذا ما جعل الحج ينتقل سريعاً من خانة الشعيرة إلى خانة الملف الأمني⁹.

ثانياً- الرقابة الصحية كأداة للضبط السياسي

هنا تتضح العلاقة العضوية بين شقّي عنوان المداخلة: الرقابة الصحية والمراقبة السياسية. فبعد إنشاء اللجنة الاستشارية للصحة في ماي سنة 1848، تبيّن دراسة شانتر أن أولى محاولات تنظيم الحج من طرف الإدارة الفرنسية تعود إلى أربعينيات القرن التاسع عشر، أي إلى مرحلة مبكرة من الاحتلال. ولم يكن هذا التنظيم ناشئاً عن حرص ديني أو احترام لخصوصية الشعيرة، بل ارتبط منذ البداية باعتبارات عسكرية وسياسية. ففي سنة 1842 أعاد المارشال بوجو تفعيل نموذج القوافل الرسمية، لا لتيسير الحج بوصفه عبادة، بل من أجل استمالة بعض الشخصيات المسلمة من جهة، وإبعاد أشخاص عُدّوا مثيرين للقلق بالنسبة للسيادة الفرنسية من جهة أخرى. ولذلك بدا الحج، منذ بدايات الاحتلال، وسيلةً من وسائل الإدارة العسكرية، يدخل في باب تدبير السكان ومراقبة المجال أكثر مما يدخل في باب ضمان الحرية الدينية .

⁸ - Ibid., pp. 87-88

⁹ - Ibid., pp. 88-91.

وفي هذا السياق نفسه، تفسّر أيضًا العناية القنصلية الفرنسية في جدة، وتعميم استعمال جواز السفر على الحجاج، ليس فقط بحجج إنسانية تتصل بحماية الحجاج المعدمين، بل كذلك بحاجات الإدارة إلى التعرف على الأشخاص **وتعقب تنقلاتهم**. وقد عززت حكومة الجمهورية الثانية هذا المسار عندما أخضعت السفر السنوي إلى الحج للترخيص، بعد إنشاء اللجنة الاستشارية للصحة سنة 1848، بحجة استمرار الطاعون والكوليرا في الشرق الأوسط. وهكذا دخلت المسألة الصحية، منذ وقت مبكر، في صلب تنظيم الحج، لكنها دخلت منذ البداية في صورة أداة إدارية للفرز والإذن والمنع .

غير أن هذا البعد الصحي لم يلبث أن اندمج بالهاجس السياسي. فبعد ثورة بومعزة سنة 1845 شددت المكاتب العربية مراقبتها لتنقلات أعضاء الطرق الدينية، خوفًا من أن تحافظ هذه الشبكات على تصور خلاصٍ ديني وسياسي معادٍ للحكم المسيحي. ثم عززت قضية السنوسية، والهجرة إلى دمشق والمدينة المنورة، ومجزرة جدة سنة 1858، هذا التصور الاستعماري الذي جعل من مكة مركزًا محتملاً للمؤامرة والتعبئة ضد فرنسا. لذلك اشترط منشور 25 يناير 1858 التحقيق في **سيرة طالب الجواز وأعماله** قبل منحه جواز السفر، وهو ما يدل على أن الحج صار موضوعًا لمراقبة البوليس الإداري والسياسي معًا .

ويتأكد هذا التداخل أكثر بعد وباء الكوليرا سنة 1865. فالمقال يوضح أن إصابة مكة بالكوليرا، ثم انتقال الوباء إلى مصر وأوروبا، جعلت الأماكن المقدسة تُقدّم في الخطاب الصحي الدولي بوصفها إحدى بؤر انتشار العدوى. غير أن الإدارة الاستعمارية لم تكتفِ بتبني هذا التصور الصحي، بل ربطته بخوفها من انتشار البان-إسلامية والسنوسية والمهدية، حتى صار **انتقال الإسلام نفسه يُشبه بانتقال العدوى الكوليرية** من “البؤرة الموبوءة” التي تمثلها مكة. وهنا يظهر بوضوح أن الرقابة الصحية لم تكن إجراءً منفصلاً، بل اندمجت في مخيال استعماري واحد يرى في الحجاج حاملاً محتملاً للمرض وحاملاً محتملاً لأفكار العصيان في الوقت نفسه .

ولهذا السبب فرضت فرنسا قيودًا مشددة على الحج الجزائري طوال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. ففي باريس، كانت اللجنة الاستشارية للصحة العمومية تستخدم نظام التراخيص الصحية لمنع المغادرة إلى الحج بمعدل مرتفع، وفي الجزائر كانت رخص السفر وجوازات الحج المحددة المدة لا تُمنح إلا بحذر شديد، وغالبًا لفئات ترى الإدارة مصلحة في استمالتها، مثل بعض الأعيان أو رؤساء الطرق غير المشتبه فيهم. أما أعضاء الطرق التي عُدت خطيرة، مثل الرحمانية والسنوسية، فخضعوا لمراقبة خاصة. كما فرض على الحجاج السفر في سفن فرنسية تخترها الإدارة، والخضوع لرؤساء حجاج ولفوض حكومي كان في الغالب طبييًا فرنسيًا، ثم صار بعد 1902 إداريًا يتمتع

بسلطات شرطية. وهذا كله يؤكد أن الحج في الجزائر الاستعمارية كان **حجًا مؤطرًا آمنًا** قبل أن يكون رحلة دينية حرة .

ومن ثم، يمكن القول إن الاستعمار الفرنسي صنع في الجزائر نموذجًا خاصًا للحج يختلف عن أنماط التنظيم في إمبراطوريات أخرى، كالهند البريطانية أو جزر الهند الشرقية الهولندية. فبينما تركت تلك الإمبراطوريات هامشًا أوسع للمبادرة الخاصة أو لوساطة الأعيان المحليين، اتجهت فرنسا في الجزائر إلى الإدارة المباشرة والتشريع الصارم. وقد أدى هذا التشدد إلى انتقادات دبلوماسية واستعمارية متعددة، ليس فقط لأنه كان يسيء إلى صورة فرنسا في المشرق، بل أيضًا لأنه أفرز حجًا مغاربيًا ضعيف النمو مقارنة بالحج الهندي أو الجاوي أو المصري. وهنا يتضح أن الرقابة المفرطة لم تكن مجرد استجابة تقنية للخطر، بل كانت جزءًا من منطق استعماري دفاعي جعل من الحج ملقًا للسيطرة على المستعمرين أكثر مما جعله ملقًا لحماية الشعيرة¹⁰ .

ومنه يمكننا القول إن أبرز ما يكشفه هذا المحور هو أن الحج في الجزائر لم يُدار بمنطق ديني، بل بمنطق الدولة الاستعمارية التي رأت في تحرك الحجاج تهديدًا مزدوجًا: **تهديدًا صحيًا** بسبب الأوبئة، و**تهديدًا سياسيًا** بسبب الصلات المشرقية والطرق الدينية والهجرة والجامعة الإسلامية. ولذلك أصبحت الرقابة الصحية جزءًا من المراقبة السياسية، وصار الحجاج موضوعًا للفحص الإداري والتحقق الأمني والانتقاء المالي والتنظيم البوليسي، حيث ترسخ في التصور الأوروبي والاستعماري أن الحج والأماكن المقدسة يمكن أن يشكلا بؤرة لانتقال الوباء نحو مصر ثم أوروبا. وتُظهر دراسة شانتري عن “الوباء والبان-إسلامية” أن هذا الخوف الصحي تزامن مع تصاعد هواجس الجامعة الإسلامية والسنوسية وغيرها من الشبكات التي رأت فيها فرنسا وسائل تعبئة ضدها، بحيث تداخلت سياسات الحجر الصحي مع سياسات الاحتواء السياسي¹¹ .

وتفيد هنا مساهمة سيلفيا شيفولو، لأن تاريخ الصحة العمومية الدولية يكشف أن المؤتمرات الصحية في القرن التاسع عشر لم تكن حيادية تمامًا، بل ارتبطت بإدارة حركة البشر والبحر والتجارة، وكان الحج من أبرز الملفات

¹⁰ - Luc Chantre, “Une menace venue d’Orient...”, *Revue d’histoire moderne & contemporaine*, 2016, p p. 84. - 86

¹¹ -. Luc Chantre, “Entre pandémie et panislamisme...”, pp. 165-172.

التي أُدرجت ضمن هذا الأفق. وبذلك يصبح الحجر الصحي، في الإطار الاستعماري، أكثر من إجراء وقائي: إنه وسيلة لتنظيم الحركة ومراقبة المرور والانتقاء. ومن هذه الزاوية، فإن الحالة الجزائرية لا تُقرأ فقط محلياً، بل ضمن تاريخ دولي أوسع جعل الحاج موضوعاً للملاحظة الطبية والإدارية في آن واحد¹². ولعل هذا ما يفسر أن فرنسا، في الجزائر، ذهبت أبعد من مجرد الاحتياط الصحي: فقد فرضت التراخيص، وحددت شروط السفر، وراقبت السفن، وعيّنت مفوضين حكوميين، وجعلت من الحاج موضوعاً للتحقيق في السيرة والموارد والوضع العائلي والضيبي.

وهذه التفاصيل تكشف أن الرقابة الصحية كانت جزءاً من شرطة استعمارية هدفت إلى فرز الحاج وضبطهم وانتقاء من يسمح له بالسفر، لا فقط إلى حمايتهم من المرض¹³.

ثالثاً- المقارنة الإمبراطورية وإبراز خصوصية الحالة الجزائرية

مع مطلع القرن العشرين، لم يبق تنظيم الحج في الجزائر ثابتاً على منطلق المنع والتضييق فقط، بل بدأ يخضع لمراجعات فرضتها اعتبارات دبلوماسية وإمبراطورية جديدة. فقد تعرّض النظام الجزائري في تنظيم الحج إلى انتقادات متعددة، خاصة من الجانب البريطاني، الذي رأى أن الأسلوب الفرنسي الصارم يضر بالحجاج ويُسبب إلى صورة فرنسا في المشرق. كما ظهرت انتقادات من داخل الأوساط الاستعمارية الفرنسية نفسها، ومن تونس أيضاً، حيث

¹² - Sylvia Chiffolleau, op. cit.

¹³ - Luc Chantre, "Une menace venue d'Orient...", pp. 91-95.

عُدّت الإجراءات الجزائرية متشددة ومزعجة سياسيًا وغير فعالة صحيًا. وهذا يدل على أن سياسة المراقبة المشددة لم تعد تحظى بإجماع حتى داخل الدوائر المرتبطة بالإدارة الاستعمارية¹⁴

وفي هذا السياق، بدأت تتبلور فكرة جديدة ترى أن حرية الحج لا تمثل بالضرورة خطرًا دائمًا، بل قد تكون أيضًا وسيلة لإظهار تفوق فرنسا الحضاري في نظر رعاياها المسلمين. فبدل أن ترى الإدارة في كل حاج مشروع متمرّد أو ناقل عدوى، بدأت بعض الدوائر، خاصة في وزارة الخارجية، تنظر إلى الحج بوصفه أداة يمكن توظيفها في خدمة النفوذ الفرنسي في العالم الإسلامي. وقد تعزز هذا الاتجاه في سياق التنافس الاستعماري الدولي، حيث لم يعد الحج مجرد شأن جزائري داخلي، بل صار مرتبطًا بمكانة فرنسا في المشرق وبالعلاقات مع القوى الأخرى¹⁵ وجاءت الحرب العالمية الأولى لتحدث تحولًا كبيرًا في هذا الملف. فبعد أن كان الحج يُنظر إليه في المقام الأول كخطر يجب احتواؤه، أصبح وسيلة من وسائل الدعاية والنفوذ الإمبراطوري. وفي سنة 1916 نظمت فرنسا بعثة حج رسمية، لم يكن هدفها دينيًا صرفًا، بل كان ذا بعد سياسي واضح؛ إذ سعت من خلالها إلى دعم الشريف حسين في سياق الثورة العربية، وإلى إظهار حضورها داخل المجال الإسلامي، ومواجهة آثار إعلان الجهاد العثماني والدعاية الألمانية بين المسلمين. وهكذا انتقل الحج من كونه موضوعًا للمنع والمراقبة إلى كونه أيضًا أداة من أدوات السياسة الخارجية الفرنسية¹⁶ ومع ذلك، لم يكن هذا التحول إلغاءً لمنطق المراقبة، بل إعادة صياغة له. فالحج الرسمي لسنة 1916،

¹⁴ Luc Chantre, "Une menace venue d'Orient. Un siècle de pèlerinages à La Mecque dans l'Algérie coloniale (1840-1940)", *Revue d'histoire moderne & contemporaine*, 2016/2, no. 63-2, pp. 95-100. ; Saurabh Mishra, *Pilgrimage, Politics and Pestilence. The Hajj from the Indian Subcontinent, 1860-1920*, New Delhi, Oxford University Press, 2011, pp. 40-44.

¹⁵ . Claude Collot, *Les institutions de l'Algérie durant la période coloniale (1830-1962)*, Paris, CNRS/Alger, OPU, 1987, pp. 245-252-

¹⁶ . Luc Chantre, pp. 100-103. ; Eileen Kane, *Russian Hajj: Empire and the Pilgrimage to Mecca*, Ithaca, Cornell University Press, 2015, pp. 132-136.

7. John Slight, *The British Empire and the Hajj, 1865-1956*, Cambridge, Harvard University Press, 2015, pp. 97-103.

رغم طابعه الاحتفالي والدبلوماسي، ظل خاضعًا لحسابات دقيقة تتصل بصورة فرنسا في المشرق، وموقعها في المنافسة مع بريطانيا، وقدرتها على مخاطبة رعاياها المسلمين داخل الإمبراطورية. وبذلك فإن منطق الضبط لم يختف، وإنما تغيرت وظائفه: فبعد أن كان الهدف الرئيسي حماية الجزائر من “الخطر القادم من الشرق”، أصبح الهدف أيضًا استخدام الحج لتوسيع النفوذ الفرنسي داخل الشرق نفسه¹⁷.

ومن ثم فإن المقارنة لا تُضعف أطروحة شانتر، بل تقويها. فهي تبين أن خصوصية الجزائر الفرنسية لم تكن في مجرد الخوف من الحج، بل في كون هذا الخوف تُرجم إلى بناء إداري بوليسي مكثف، جعل من الحج ملفًا دفاعيًا داخليًا بقدر ما هو ملف ديني أو خارجي. ومن هنا يمكن القول إن الحج الجزائري كان “حجًا دفاعيًا” بالمعنى الذي يورده شانتر: حجًا تديره السلطة لحماية المستعمرة كما تتصورها، لا لتيسير شعيرة دينية لمواطنيها المسلمين¹⁸.

رابعًا- من التنضيق إلى التوظيف الإمبراطوري

يتبين لنا مما سبق أن السياسة الفرنسية لم تبقى جامدة، فقد يبيّن شانتر أن مطلع القرن العشرين و بداية الحرب العالمية الأولى، أدّى إلى تحولات في وظيفة الحج داخل التفكير الاستعماري الفرنسي. فمع الانتقادات التي وُجّهت إلى الصرامة الجزائرية، ومع تصاعد رهانات النفوذ في المشرق، بدأت بعض الدوائر الفرنسية، خاصة في وزارة الخارجية، تنظر إلى الحج لا بوصفه خطرًا فقط، بل بوصفه أداة نفوذ إمبراطوري أيضًا. وتجسّد ذلك بوضوح في بعثة الحج الرسمية سنة 1916، التي لم تكن دينية محضة، بل ارتبطت بدعم الشريف حسين وإظهار مكانة فرنسا داخل العالم الإسلامي ومواجهة الدعاية العثمانية والألمانية¹⁹. وعند مطلع القرن، بدأت تترسّخ فكرة مفادها أن حرية الحج قد لا تمثل تهديدًا بقدر ما تمثل فرصة تتيح للرعايا المسلمين الخاضعين لفرنسا أن يقارنوا أوضاعهم السياسية والاجتماعية — المفترض أنها أفضل — بأوضاع إخوانهم في الدين في الحجاز، بل وفي سائر الإمبراطوريات الأخرى أيضًا، وكان أنصار حرية الحج موجودين في الأوساط الدبلوماسية، وفي صفوف الأعيان

¹⁷ 8. Luc Chantre, pp. 103-105 المرجع نفسه،

¹⁸ -. Luc Chantre, “Une menace venue d’Orient...”, pp. 95-98.

¹⁹ -. Ibid., pp. 100-103.

المسلمين، بل وحتى داخل بعض الأوساط الاستعمارية نفسها. وهكذا، أصدرت الفرقة الخامسة عشرة من المؤتمر الاستعماري سنة 1904 توصية جاء فيها:

"أن تتبع فرنسا من الآن فصاعدًا مثال إنجلترا وهولندا وروسيا، وأن تمنح رعاياها المسلمين كل سنة الإذن بأداء هذه الرحلة التي تُعدّ فريضة أساسية في دينهم".

وتبنّت هذا الرأي أيضًا اللجنة المشتركة بين الوزارات للشؤون الإسلامية، التي أنشئت سنة 1911، إذ أقرّت توصية تعبر فيها عن: رغبة الجزائر في أن يؤذن بالحج كلما لم توجد استحالة تحول دون ذلك، وبعد إلحاق الحماية الفرنسية على المغرب باختصاصات وزارة الخارجية، أصبح الكي دورسيه، الذي كان يترأس كذلك هذه اللجنة، عازمًا على فرض ثقله في مواجهة وزارة الداخلية. وبلغ نضال أنصار الاتجاه الليبرالي ذروته داخل البرلمان في إطار الإصلاحات الرامية إلى تخفيف نظام الأهالي، وهكذا ألغت المادة 16 من قانون 15 يوليو/تموز 1914 المنظم لنظام الأهالي في الجزائر نظام الترخيص الذي كان معمولًا به بخصوص الحج، على أن يلتزم الحاج بالشروط والتعليمات الصحية المحددة. ؛ وبالنسبة للنائب ألبان روزيه، المعروف بميوله المؤيدة للأهالي، والذي كان مقرر القانون في مجلس النواب، فإنه قال:

"لم تعد هناك، ولا سيما منذ التطور الذي عرفته تركيا، أسباب سياسية أو أخلاقية جديدة تمنع مسلمًا جزائريًا من الذهاب إلى مكة، أكثر مما تمنع كاثوليكيًا من بريثاني أو ببيكاردي من الذهاب إلى القدس، بل وإلى روما على وجه الخصوص، وهكذا، فإن نهاية الاستثناء الجزائري في مجال الحج سارت جنبًا إلى جنب مع رغبة وزارة الخارجية في جعل الحج أداة جديدة للإشعاع والنفوذ في خدمة الفكرة الإمبراطورية.²⁰

وتسمح هذه المرحلة بتوسيع القراءة النظرية للمداخلة: فالدولة الاستعمارية لا تكتفي بالمنع، بل قد تنتقل إلى التنظيم الدعائي حين ترى في ذلك مصلحة سياسية. لكن هذا "الانفتاح" الظاهر لا يخرجها من منطق السيطرة،

²⁰ --. Luc Chantre, "Une menace venue d'Orient...", pp. 91-92

لأنه يظل قائماً على الإشراف والتمثيل واختيار من يتكلم باسم المسلمين²¹. لذلك فإن بعثة 1916²² لا ينبغي أن تُقرأ بوصفها نهاية الرقابة، بل بوصفها لحظة إعادة تشكيل لها ضمن سياسة إمبراطورية أوسع²³.

خامساً- الثلاثينيات، الإصلاح الإسلامي، والقومية العربية

إذا كانت الحرب العالمية الأولى قد منحت فرنسا فرصة لتوظيف الحج في خدمة نفوذها الإمبراطوري، فإن مرحلة الثلاثينيات كشفت من جديد هشاشة هذا التوظيف وحدوده. ففي هذه الفترة لم يعد “الخطر القادم من الشرق” يُصاغ فقط بلغة الأوبئة أو الطرق الدينية، بل صار يُربط أيضاً بصعود القومية العربية، واتساع شبكات الإصلاح الإسلامي، ثم بالدعاية التي مارستها إيطاليا الفاشية داخل العالم الإسلامي. وهكذا استعاد الحج، في نظر الإدارة الاستعمارية، مكانته بوصفه فضاءً حساساً لتداول الأفكار السياسية والدينية، ومناسبة لاحتكاك

21 - ورغبةً منه في الإمساك بزمام المبادرة في ما يخصّ تشكيل الوفد السياسي، لم يتردد في أن يكتب، في 26 يونيو/حزيران، إلى أريستيد بريان، رئيس الحكومة ووزير الخارجية، ليعبّر له عن الاهتمام الكبير الذي يوليه للمشروع، مقترحاً عليه أيضاً اسم الشخصية المسلمة التي ستقود المهمة. وهكذا وقع الاختيار على قدور بن غيريط، رئيس النشريات لدى سلطان المغرب. وتعزز هذا «الخيار المغربي» بعد إضفاء الطابع الرسمي على البعثة في 2 أغسطس/آب 1916 من طرف أريستيد بريان، وبعد تعيين المقدم بريمان رئيساً للبعثة العسكرية الفرنسية في الحجاز.

22- الحج الرسمي سنة 1916 والمسألة السورية

إن تنظيم حج رسمي سنة 1916 لمسلمي الإمبراطورية الفرنسية كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمشروع إقامة منطقة نفوذ في سوريا، وهو المشروع الذي دافع عنه عدد من دبلوماسيي وزارة الخارجية الفرنسية بعد اتفاقيات سايكس-بيكو في 5 يونيو/حزيران 1916، أعطى تمرّد حامية المدينة المنورة إشارة انطلاق الثورة العربية بقيادة الشريف الهاشمي حسين بن علي ضد العثمانيين. وبعد سنة من الانقطاع بسبب الهجوم العثماني على قناة السويس، بدأ البريطانيون يفكرون في تشجيع استئناف الحج إلى مكة دعماً لحلفائهم الهاشميين، وفي 15 يونيو/حزيران، عرض بيير دو مارغري، مدير الشؤون السياسية والتجارية، على ليوطي مشروع القاضي بإرسال وفد للحج يضم «بعض الشخصيات المهمة». وكان الهدف من ذلك مزدوجاً: من جهة، إظهار دعم فرنسا للشريف حسين، ومن جهة أخرى، بحث مسألة إنشاء فنادق أو دور ضيافة في مكة والمدينة للحجاج المعوزي وكانت هذه المسألة قد أثّرت بالفعل داخل اللجنة المشتركة بين الوزارات للشؤون الإسلامية خلال جلستها المنعقدة في 2 ديسمبر/كانون الأول 1915، وأسفرت لاحقاً عن صدور قانون 21 يناير/كانون الثاني 1916 الذي مَوَّل إنشاء أماكن إيواء للحجاج المعدمين، لمزيد من التفاصيل ينظر Luc Chantre, “Une menace venue d’Orient...”, pp. 92-93.

23 - Ibid., pp. 103-105

الحجاج الجزائريين بمؤثرات خارجية قد تُضعف ولاءهم لفرنسا²⁴.

وقد ساعدت التحولات الفكرية والسياسية في المشرق على تغذية هذا القلق الاستعماري. فالحج لم يكن مجرد تنقل موسمي، بل كان مجالاً لاجتماع المسلمين القادمين من أقاليم مختلفة، بما يتيح انتقال الأخبار والآراء والشعارات السياسية. وفي هذا المناخ برزت أسماء مثل شكيب أرسلان، الذي مثّل في نظر السلطات الاستعمارية حلقة وصل بين المشرق والمغرب، وبين الإصلاح الإسلامي والدفاع عن القضايا العربية والإسلامية. لذلك لم يعد الحاج الجزائري يُنظر إليه فقط باعتباره شخصاً يؤدي فريضة، بل باعتباره أيضاً شخصاً قد يعود محملاً بخطاب سياسي جديد، أو أكثر اتصالاً بشبكات فكرية عابرة للحدود²⁵.

وفي الوقت نفسه، كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تُعيد طرح مسألة الحج ضمن خطاب ديني إصلاحي أوسع يطالب بحرية ممارسة الشعائر، ويرفض ما تفرضه الإدارة الاستعمارية من قيود باسم التنظيم أو الاحتياط. ولم يكن ذلك يعني أن الجمعية جعلت من الحج محور نشاطها الوحيد، لكنها أسهمت في خلق مناخ فكري يؤكد حق المسلمين في إدارة شؤونهم الدينية بأنفسهم، ويضعف شرعية التدخل الإداري الفرنسي في هذا المجال. ومن هنا فهمت السلطات الاستعمارية تنامي الخطاب الإصلاحي لا بوصفه دعوة دينية فقط، بل كأحد التعبيرات عن يقظة سياسية وثقافية تهدد بنية السيطرة الكولونيالية²⁶ غير أن العامل الأشد إقلاقاً لفرنسا في الثلاثينيات تمثل في الدعاية الفاشية الإيطالية. فمنذ توسع إيطاليا في شمال إفريقيا وسعيها إلى مخاطبة المسلمين بصفتها قوة "صديقة للإسلام"، أخذت روما تعمل على استغلال الحج في حملتها الدعائية. وقدمت نفسها، من

²⁴ Luc Chantre, "Une menace venue d'Orient. Un siècle de pèlerinages à La Mecque dans l'Algérie coloniale (1840-1940)", *Revue d'histoire moderne & contemporaine*, 2016/2, no. 63-2, pp. 103-109., Ali Merad, *Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940*, Paris, Mouton, 1967, pp. 45-70

²⁵ . Luc Chantre, *Ibid* ;pp. 105-107., André Nouschi, *La naissance du nationalisme algérien*, Paris, Éditions de Minuit, 1962, pp. 112-118.

²⁶ Ali Merad, *المرجع نفسه*, pp. 119-140., Luc Chantre, *المرجع نفسه*, pp. 106-108

خلال خطابها السياسي ووسائلها الإعلامية، على أنها أكثر احترامًا للإسلام من فرنسا وبريطانيا، كما حاولت استمالة النخب والشخصيات المؤثرة في المجال الإسلامي. وهنا أصبح الحج ساحة تنافس استعماري صريح، لا بين فرنسا وبريطانيا فقط، بل أيضًا بين فرنسا وإيطاليا الفاشية²⁷.

وقد أدركت فرنسا أن هذا التحول يفرض عليها إعادة تكييف خطابها وممارساتها. فبدل الاقتصار على المنع أو التضيق، بدأت تسعى إلى منافسة الدعاية المضادة بالدعاية، وإلى إبراز نفسها بوصفها راعيةً لمصالح الحجاج المسلمين داخل إمبراطوريتها. لكن هذا التحول لم يكن خروجًا من منطق المراقبة، بل كان تطويرًا له؛ إذ أصبحت الدولة الاستعمارية توظف التسهيل والتنظيم والإعلام من أجل تحقيق الغاية نفسها: **ضبط الحج ومنع تحوله إلى قناة مستقلة للتأثير السياسي والفكري**. ومن ثم، فإن الثلاثينيات تكشف بوضوح أن المسألة لم تعد تتعلق فقط بمراقبة الأجساد خوفًا من الوباء، بل كذلك بمراقبة العقول والولاءات خوفًا من القومية العربية والدعاية الفاشية²⁸ يتضح من خلال ماسبق ومن هنا يمكن إثراء المداخلة بالقول إن الحج، في الثلاثينيات، لم يعد مجرد ملف إداري، بل صار أيضًا نقطة تماس بين الإدارة الفرنسية من جهة، والتيار الإصلاحية الوطني والديني من جهة أخرى. وكلما تعاظمت صلات الجزائريين بالمشرق، أو اتسع تداول أفكار الإصلاح والقومية، ازداد خوف الإدارة من أن يتحول الحج إلى قناة لتوسيع الوعي المناهض للاستعمار. وهذا ما ينسجم مع خاتمة شانتر، التي تربط في المرحلة المتأخرة بين الحج وصعود القومية العربية والدعاية الفاشية في البحر الأحمر²⁹.

²⁷. Luc Chantre، نفسه، pp. 107-109. ; John Slight, *The British Empire and the Hajj, 1865-1956*, Cambridge, Harvard University Press, 2015, pp. 180-190.

²⁸. Luc Chantre، نفسه، pp. 108-109. ; André Nouschi، نفسه، pp. 145-150

²⁹ - Luc Chantre، "Une menace venue d'Orient..."، pp. 105-109.

تسمح إعادة قراءة الحج في ظل الاستعمار الفرنسي للجزائر، في ضوء لوك شانتر والمراجع المكتملة، بالوصول إلى نتيجة مركزية: لم تكن الرقابة الصحية على الحج منفصلة عن المراقبة السياسية، بل كانت واحدة من أدواتها الأساسية. فخطاب الصحة العمومية وقر للإدارة الاستعمارية لغة مشروع لتقييد الحركة، ومراقبة الأجساد، والتحكم في الصلات الخارجية للمجتمع الجزائري المسلم. وفي الوقت نفسه، كانت الاعتبارات السياسية، من الخوف من الهجرة والسنوسية والجامعة الإسلامية إلى هاجس القومية العربية والدعاية الفاشية، تمنح هذا التقييد معناه الحقيقي داخل النظام الكولونيالي³⁰

وعليه، فإن الحج في الجزائر الاستعمارية لم يكن مجرد رحلة إلى الأماكن المقدسة، بل كان مرآة مكثفة لآليات الحكم الاستعماري: مراقبة، فرز، تنظيم، دعاية، ومنافسة إمبراطورية. ومن هنا تنبع أهمية هذا الموضوع، لأنه يكشف كيف استخدمت الدولة الاستعمارية أدوات القانون والصحة والإدارة لتدبير شأن ديني، وتحويله إلى حقل من حقول السيطرة على المجتمع المسلم.

قائمة المصادر والمراجع

1. Luc Chantre, “Une menace venue d’Orient. Un siècle de pèlerinages à La Mecque dans l’Algérie coloniale (1840-1940)”, *Revue d’histoire moderne & contemporaine*, 2016/2, no. 63-2, pp. 84-109.

³⁰ - Ibid., pp. 84-109.

2. Luc Chantre, “Entre pandémie et panislamisme. L’imaginaire colonial du pèlerinage à La Mecque (1866–1914)”, *Archives de sciences sociales des religions*, no. 163, 2013, pp. 165–189.
3. Sylvia Chiffolleau, *Genèse de la santé publique internationale. De la peste d’Orient à l’OMS*, Rennes, Presses universitaires de Rennes, 2012.
4. Saurabh Mishra, *Pilgrimage, Politics, and Pestilence: The Haj from the Indian Subcontinent, 1860–1920*, Oxford University Press, 2011; John Slight, *The British Empire and the Hajj, 1865–1956*, Harvard University Press, 2015.
5. Ali Merad, *Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940: essai d’histoire religieuse et sociale*, Paris/La Haye, Mouton, 1967.

